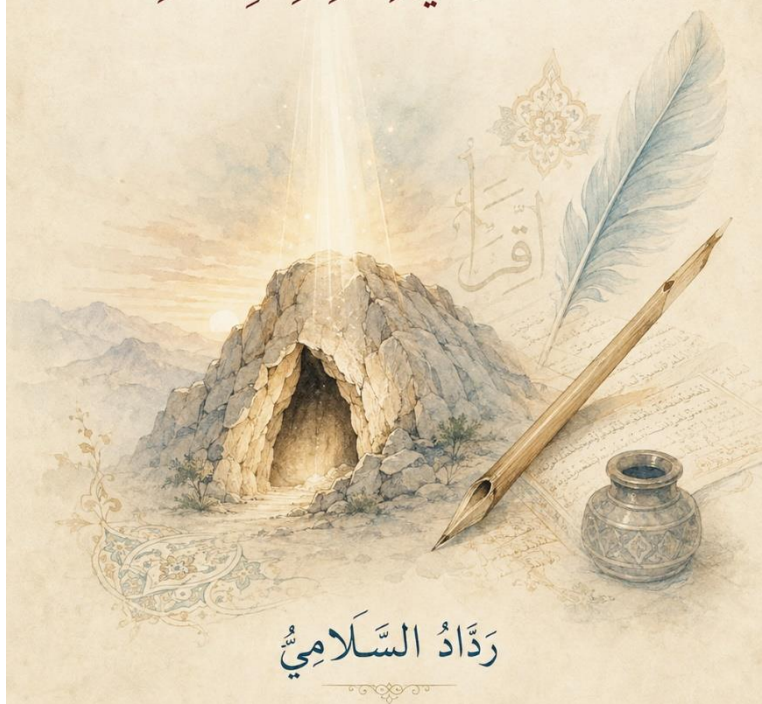


سُورَةُ الْاَعْلَاقِ

حِينَ بَدَأَ الْوَحْيُ بِتَحْرِيرِ الْاِنْسَانِ



رَدَّادُ السَّلَامِي

سُورَةُ الْعَلَقِ

حين بدأ الوحيُ بتحرير الإنسان

رَدَّادُ السَّلَامِيَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة منهجية

في قراءة سورة العلق: من نشأة الإنسان

إلى ميلاد الوعي

ليست سورة العلق مجرد السورة التي افتتحت بها نزول القرآن، بل هي اللحظة التي أعاد فيها الوحي تعريف الإنسان، وحدد له نقطة البدء، وكشف أمامه طريق الصعود وموضع السقوط. ففي آياتها التسع عشرة تنطوي خريطة الوجود الإنساني كله: خلق من علق، وتعليم بالقلم، وامتحان بالقدرة، وطغيان ينشأ من وهم الاستغناء، ثم رجوع إلى الله لا يستطيع أحد أن يفلت منه، وفي نهاية الطريق سجود يعيد الإنسان إلى حقيقته ويفتح له أبواب القرب.

ومن هنا لم نتعامل مع السورة في هذه الرحلة بوصفها مجموعة آيات متجاورة، لكل آية معناها المنفصل، وإنما قرأناها بناءً محكمًا تتحرك معانيه

سُورَةُ الْعَلَقِ

في مسار واحد. فالسورة تبدأ بأمرٍ يوقظ العقل: ﴿اقْرَأْ﴾، وتنتهي بأمرٍ يوقظ الروح: ﴿وَاقْتَرِبْ﴾؛ وبين الأمرين تتشكل شخصية الإنسان كما يريدّها الوحي: إنسانٌ يقرأ باسم ربّه، ويعرف أصله، ويتواضع لنعمة العلم، ويقاوم وهم الاستغناء، ويرفض طاعة الطغيان، ويسجد لله حتى يقترب.

والخيط الجامع الذي انتظمت حوله فصول الكتاب هو انتقال الإنسان من الافتقار الخَلْقِي إلى الافتقار التعبدي. فقد خُلِق الإنسان من علق؛ ضعيفاً متعلّقاً، لا يملك من أمر تكوينه شيئاً، ثم أكرمه الله بالعلم والبيان والقلم، فانتقل من ضعف المادة إلى شرف المعرفة. غير أن هذا الارتقاء نفسه يحمل امتحانه في داخله؛ إذ قد ينسى الإنسان أن العلم عطاء، وأن القدرة أمانة، وأن الغنى النسبي لا يخرجّه من فقره الوجودي إلى الله، فيقع في أخطر أوهامه: ﴿أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾.

ولهذا تتوسط السورة حقيقة الرجوع إلى الله: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾. فهي ليست جملةً عارضة بين مقطعين، بل محورٌ يعيد ضبط الرؤية كلها. فالذي خلق هو الذي إليه الرجوع، والذي علّم هو الذي

سيحاسب على أثر العلم، والذي أكرم هو الذي يسأل
الإنسان كيف استعمل ما أكرم به. ومن نسي
الرجعى توهم الاستغناء، ومن استحضرها استقام
على حدود العبودية.

وقد قامت هذه القراءة على جملة من الأصول
المنهجية:

أولها: الانطلاق من المعنى الظاهر للآيات، كما تدل
عليه اللغة والسياق وما قرره أهل التفسير، ثم
الانتقال منه إلى مساحات التأمل النفسي والإنساني
والحضاري، دون تحميل الألفاظ ما لا تحتل، أو
فصل الإشارات التأملية عن أصل المعنى القرآني.

وثانيها: قراءة السورة بوصفها وحدةً بنائيةً
متماسكة؛ إذ لا تنفصل فيها آيات الخلق والتعليم عن
آيات الطغيان، ولا ينفصل مشهد النهي عن الصلاة
عن ختام السجود والاقتراب. فالعلم الذي لا يبقى
موصولاً باسم الله قد ينقلب إلى استغناء، والاستغناء
قد يتحول إلى طغيان، والطغيان لا يكتفي بالابتعاد
عن الله، بل يحاول أن يمنع الآخرين من عبادته.
وفي مقابل ذلك تأتي الصلاة لتعيد ترتيب العلاقة

بين العبد وربّه، ويأتي السجود ليهدم في النفس
الوهم الذي أنشأ الطغيان.

وثالثها: العناية بالمقابلات الداخلية التي صنعت
الإيقاع الفكري للسورة؛ فهناك مقابلة بين **(عَلَقٍ)**
و**(اسْتَغْنَى)**، وبين العبد المصلي والناهي المتكبر،
وبين الناصية التي تأبى أن تتحني والناصية التي
تؤخذ أخذًا شديدًا، وبين نادي الطاغية والزبانية،
وبين من يرفع رأسه كبرًا ومن يضع جبهته لله
فيرتفع قدرًا، وبين القراءة التي تفتح باب المعرفة
والسجود الذي يفتح باب القرب.

ورابعها: استحضار سبب النزول دون حصر دلالة
السورة في واقعها الأولي. فموقف أبي جهل من
صلاة النبي ﷺ هو السياق التاريخي الذي تتجسد فيه
الآيات، لكنه في الوقت نفسه نموذجٌ متكرر لكل
طغيان يضيق بعبودية الإنسان لله، ولكل سلطة تريد
أن تمتد من السيطرة على الجسد إلى السيطرة على
الضمير. وهكذا يبقى النص وفياً للحظة نزوله،
قادرًا في الوقت نفسه على مخاطبة كل لحظة
إنسانية تتجدد فيها المعركة بين الإيمان والاستكبار.

وخامسها: وصل المعنى القرآني بواقع الإنسان المعاصر، لا عن طريق إسقاطات متعجلة، بل بالكشف عن السنن النفسية الثابتة. فالإنسان الحديث قد يختلف في أدواته عن إنسان الجاهلية، لكنه لا يختلف عنه في قابلية الغرور بالعلم والقوة والمال. وقد اتسعت معرفة البشر بالكون، لكن اتساع المعرفة لم يمنعهم من توظيفها في التدمير حين انفصلت عن الهداية. ومن هنا تبقى عبارة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ميثاقاً معرفياً خالداً: اقرأ، واكتشف، وابحث، ولكن لا تجعل ما تعلمته حجاباً بينك وبين الذي علّمك.

أما اللغة في هذا الكتاب، فقد قصدنا أن تكون جسراً إلى المعنى، لا زينةً تحجبه؛ لغةً تجمع بين الإيضاح والإيحاء، وتحاول أن تنقل حرارة المشهد القرآني إلى وجدان القارئ، من غير أن تستبدل بجلال النص بلاغة الكاتب. فالكلمة الأدبية هنا ليست غاية مستقلة، وإنما وسيلة لإيقاظ التدبر، وتقريب الحقيقة إلى القلب، وإعادة الآية من دائرة المؤلف الذي تمر عليه العين إلى فضاء الدهشة التي تستوقف العقل والروح.

سُورَةُ الْعَلَقِ

وهذا الكتاب ليس تفسيرا مستوعبا للسورة، ولا يدّعي الإحاطة بما أودع الله فيها من الهدايات؛ فالقرآن أوسع من أن تستنفده قراءة، وأغنى من أن يحيط به تدبر واحد. إنما هو محاولة للاقترب من بعض أنوارها، والإنصات إلى بنائها، وتتبع حركتها في النفس: كيف تُنشئ الإنسان القارئ، وتحذره من التحول إلى الإنسان الطاغي، ثم تعيده إلى خلاصه الأخير في السجود.

وقد انتظمت الرحلة في ستة فصول تتدرج مع حركة السورة: من ميلاد الوعي بأمر القراءة، إلى كشف وهم الاستغناء، ثم مشهد العبد الذي يُنهي عن الصلاة، ففضح الناصية الكاذبة الخاطئة، وسقوط الاحتماء بالنادي والجماعة، وانتهاءً بتحرير الإرادة من طاعة الطاغية، وفتح طريق القرب بالسجود.

إن سورة العلق لا تقول للإنسان: اعرف مقدار ضعفك فتيأس، بل تقول له: اعرف أصلك فلا تتكبر، واعرف ما منحك الله فلا تحتقر نفسك. أنت من علق، ولكن ربك علّمك بالقلم. كنت لا تعلم شيئا، ثم فتح الله لك أبواب المعرفة. فلا تجعل ارتقاءك في مراتب العلم سببا لانحدارك في دركات الغرور،

سُورَةُ الْعَلَقِ

ولا تستعمل النعمة في محاربة المنعم، ولا تجعل ما في يدك من أسباب القوة ينسبك أن إلى ربك الرجعى.

وهذه هي المفارقة التي يريد الكتاب أن يظل القارئ شاخصاً أمامها: الإنسان نفسه الذي يستطيع أن يصير قارئاً باسم الله، قد يصير طاغياً إذا رأى نفسه استغنى. والناصية نفسها التي يمكن أن تسجد فتقترب، قد تكذب وتخطئ فتؤخذ أخذاً شديداً. وبين المصيرين تقف حرية الإنسان ومسؤوليته: أن يختار معرفة تقوده إلى العبودية، أو معرفة تملؤه بوهم السيادة.

وغاية هذه الرحلة أن نخرج من سورة العلق ونحن أكثر وعياً بأن القراءة الحقيقية ليست جمعاً للمعلومات، بل تصحيح للرؤية؛ وأن العلم لا يبلغ كماله حتى يورث التواضع؛ وأن الصلاة ليست حركة على هامش الحياة، بل موقف تحرر من كل عبودية زائفة؛ وأن السجود ليس نهاية الهبوط إلى الأرض، بل بداية الارتفاع إلى الله.

سُورَةُ الْعَلَقِ

لقد بدأ الوحي بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾، كأن أبواب السماء
فُتِحَتْ لتولد أمةٌ من المعرفة. وخُتِمت السورة بقوله:
﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، لئلا تنسى تلك الأمة أن المعرفة
مهما ارتفعت بها، فلا غاية لها أجلّ من أن تدلها
على ربها.

فبين القراءة والسجود يقوم منهج القرآن، وبين العلق
والقرب تمتد رحلة الإنسان.

ثَمَّةٌ لحظاتٌ لا يتغيّر فيها تاريخُ رجلٍ فحسب، بل
يتغيّر بها معنى الإنسان في الأرض. وكانت لحظة
غار حراء واحدةً من تلك اللحظات الفاصلة: رجلٌ
صادق يعتزل ضجيج الجاهلية، وأمةٌ لا تعلم أن
فجرها يتكوّن بعيداً عنها، وسماءٌ تستعدّ لتضع في
قلب الأرض آخر رسالاتها.

لم يبدأ الوحي بصوت جيش، ولا بإعلان دولة،
ولا بتقريع مجتمع، بل بدأ بكلمة:

﴿اقْرَأْ﴾.

سُورَةُ الْعَلَقِ

كَأَن أَوَّلَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ لِيُخْرَجَ مِنْ ظِلْمَاتِ
الْجَهْلِ وَالْوُثْنِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ هُوَ أَنْ تُفْتَحَ عَيْنُهُ عَلَى
الْمَعْنَى. فَالطُّغْيَانُ لَا يَبْدَأُ مِنَ الْيَدِ حِينَ تَبْطِشُ، بَلْ
مِنَ الْعَقْلِ حِينَ يَعْصِي؛ وَالتَّحْرِيرُ لَا يَبْدَأُ مِنْ كَسْرِ
الْقَيْودِ الْمُحِيطَةِ بِالْإِنْسَانِ، بَلْ مِنْ إِضَاءَةِ الْوَعْيِ فِي
دَاخِلِهِ.

سورة العلق هي قصة الإنسان بين بدايتين: بدايةٍ
من عَاقٍ، وبدايةٍ من عِلْمٍ. ثم هي قصته بين
مَصِيرَيْنِ: أَنْ يَعْرِفَ رَبَّهُ فَيَسْجُدَ، أَوْ يَنْسِيَ أَصْلَهُ
فَيَطْغَى.

إنها سورة ترسم مسيرة الإنسان كاملةً في تسع
عشرة آية: من رَحِمٍ خَفِيٍّ إِلَى عَقْلٍ يَقْرَأُ، وَمِنْ نِعْمَةٍ
الْعِلْمِ إِلَى فِتْنَةٍ الْإِسْتِغْنَاءِ، وَمِنْ غُرُورِ الْقُوَّةِ إِلَى
السُّجُودِ الَّذِي يَعِيدُ الْمَخْلُوقَ إِلَى مَقَامِهِ الصَّحِيحِ.

الفصل الأول

﴿اقْرَأْ﴾: ولادة الإنسان من جديد

يهبط جبريل عليه السلام على محمد ﷺ في غار حراء، وتأتي الكلمة الأولى ثقيلةً بجلالها:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

كان يمكن أن يبدأ الوحي بقول: آمِن، أو اعبد، أو اسجد، أو أنذر؛ لكنه بدأ بـ﴿اقْرَأْ﴾، لأن الإيمان الذي يريده القرآن ليس انفعالاً أعمى، بل بصيرةٌ تستيقظ، وعقلٌ يتلقى عن الله، وقلبٌ يعرف لماذا يؤمن ولمن يسجد.

لكن القراءة لم تُترك مطلقةً بلا مرجعية:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

سُورَةُ الْعَلَقِ

فالإنسان قد يقرأ ثم يزداد بما قرأه ضلالاً، وقد يتعلم ليطغى، ويكتشف ليُفسد، ويمتلك المعرفة ليضاعف بها شقاء البشر. ليست كل قراءة هداية، ولا كل معرفة نوراً؛ إنما تستقيم المعرفة حين تبدأ باسم الله، وتتحرك في ظلال العبودية، وتعرف أن الحقيقة ليست ملكاً للعقل، بل أمانة أودعها الله فيه.

وهنا يضع القرآن منذ اللحظة الأولى ميثاق المعرفة: اقرأ، ولكن لا تنفصل بقراءتك عن ربك. افتح عينيك على الكون، لكن لا تنسَ خالق الكون. افهم الأشياء، ولكن لا تجعل فهمك حجاباً يحجبك عمّن أوجدها.

إن قوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يحفظ العقل من أن يتحول العلم في يديه إلى وثن جديد. فالمعرفة إذا انفصلت عن الله منحت الإنسان قدرةً أكبر، لكنها لم تمنحه بالضرورة قلباً أظهر. وقد علّم التاريخ البشر كيف يشقّون الذرة، ولم يعلمهم دائماً لماذا يجب ألا يحرقوا بها المدن.

الذي خلق

لم يقل: اقرأ باسم ربك العظيم، أو القوي، أو العليم، مع أن ذلك كله حق، وإنما جاء أول تعريف بالله في التنزيل من بوابة الخلق:

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾.

فالخلق هو الحقيقة الأولى التي تضع الإنسان في موضعه الصحيح: أنت لست صاحب نفسك، ولم تأتِ إلى الوجود بقرارك، ولم تختَرِ زمانك ولا مكانك ولا ملامحك. لقد وُجدت لأن إرادةً أعلى أرادت لك أن توجد.

وهذه الحقيقة ليست انتقاصاً من الإنسان، بل تحريراً له؛ لأن من عرف أن الله خلقه لم يعد مضطراً إلى أن يبحث عن قيمته في تصفيق الناس، ولا أن يهب وجوده لمخلوق مثله. يكفيه شرفاً أن خالقه لم يخلقه عبثاً، وأن الذي أخرجه إلى الوجود هو الذي خاطبه وعلمه ودعاه إليه.

وجاء الفعل ﴿خَلَقَ﴾ مطلقاً، لم يُذكر مفعوله أولاً؛
لتذهب النفس في كل مذهب: خلق السماء،
والأرض، والليل، والنهار، والنجوم، والماء،
والحياة، وما نعلم وما لا نعلم. ثم خُصَّ الإنسان
 بالذكر:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

كأن اتساع الكون كله يُطوى فجأة، لتقف أمام مرآتك
 وترى أصلك.

من عَلَقٍ

إنها كلمة قصيرة تهدم في الإنسان أوهام الكبرياء
 قبل أن تنشأ. هذا الكائن الذي سيجادل، ويخاصم،
 ويبنى الحضارات، ويرفع الجيوش، ويعلن أنه
 مستغن عن الله—كان في بدايته عَلَقًا ضعيفًا، متعلّقًا
 بجدار الرحم، لا يملك لنفسه حركةً مستقلة ولا دفعًا
 ولا اختيارًا.

لم يقل القرآن ذلك ليُهيئ الإنسان، بل ليحميه من
 أخطر أوهامه: نسيان البداية.

سُورَةُ الْعَلَقِ

فالذي يتذكر هشاشته الأولى لا يسهل عليه أن يتكبر. والذي يعلم أنه كان شيئاً لا يُذكر يدرك أن كل ما صار إليه فضلٌ موهوب لا استحقاقٌ ذاتي. جسده، وعقله، ولسانه، وقدرته على القراءة، كلها عطايا وصلت إليه بعد أن كان عاجزاً حتى عن تعريف نفسه.

وبين ﴿عَلَقٍ﴾ و﴿اِقْرَأْ﴾ تمتد رحلة مذهلة: مادةٌ ضئيلة معلقة في ظلمات الرحم تتحول بإذن الله إلى عقلٍ يقرأ الوجود، ولسانٍ ينطق، وروحٍ تسأل عن الحقيقة.

ما أعظم المسافة بين أصل الإنسان ومآله! وما أكرم الرب الذي أخذ هذا المخلوق من ضعف التكوين إلى شرف التلقّي عنه!

ولهذا سيبدو الطغيان لاحقاً في السورة مفارقةً موجعة: كيف يطغى مَنْ كان عَلَقًا؟ وكيف يستغني مَنْ لم يكن يملك في أول وجوده إلا أن يتعلق بغيره؟

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾

تتكرر الكلمة مرة أخرى، لكن الخوف الذي أحاط بالأمر الأول تُقابله هذه المرة الطمأنينة:

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

كأن المعنى: اقرأ، وإن شعرت بعجزك؛ فالأمر لا يعتمد على قدرتك وحدها، بل على كرم ربك. أنت تقول: ما أنا بقارئ، وربك يقول لك إن عطاءه سيحملك فوق حدود ما تعرفه عن نفسك.

وهكذا تبدأ الرسالة من اعتراف الإنسان بعجزه، ثم يأتيه المدد من كرم الله. لم يكن محمد ﷺ قد تعلّم القراءة في كتاب، لكن الله سيجعل قلبه وعاءً لكتاب يعلم البشرية إلى قيام الساعة. وما كان نقصاً في المقياس البشري صار آيةً في المقياس الإلهي؛ ليعلم الناس أن هذا القرآن لم تُنشئه ثقافة بشرية متراكمة، وإنما تلقّاه النبي ﷺ وحيًا من رب العالمين.

سُورَةُ الْعَلَقِ

ووصف الله نفسه هنا بأنه ﴿الْأَكْرَمُ﴾، لا الكريم فحسب؛ لأن ما سيُمنح للإنسان أعظم من مجرد متاع يستهلكه: سيُمنح المعرفة التي يرى بها نفسه وربّه والعالم.

قد يعطيك الناس شيئاً من أموالهم، أما الله فيفتح لك باباً إلى المعنى. وقد يُطعم الكرمُ جسدك يوماً، لكن كرم التعليم يوقظ إنسانيتك ويمنح حياتك وجهتها.

القلم: ذاكرة الإنسان

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

في أول لحظات التنزيل ذكر القلم. ذلك الكائن الصغير الذي يحمل ذاكرة الأمم، وينقل المعرفة من صدرٍ إلى صدر، ومن عصرٍ إلى عصر، ويجعل الإنسان قادراً على أن يبدأ من حيث انتهى السابقون.

لولا القلم لمات كثيرٌ من العلم بموت أصحابه، ولا اضطرت البشرية في كل جيل إلى أن تبدأ طفولتها من جديد. لكن الله علّم بالقلم، فصار الزمن يتراكم معرفةً، وصار الغائب يخاطب الحاضر،

وصارت عقول الموتى تجلس بين الأحياء في هيئة كتب.

القلم امتداداً للعمر، وانتصاراً هادئاً على النسيان.

وليس من المصادفة أن يذكره الوحي في بدايته؛ فالرسالة التي ستغيّر العالم لن تبقى صيحةً عابرةً في صحراء العرب، بل سنُقْرَأُ، وتُكْتَبُ، وتُحْفَظُ، وتنتقل من جيل إلى جيل. كأن القلم كان ينتظر منذ اختراعه أن يُكرم بأعظم ما كُتِبَ به: كلام الله.

لكن القلم—كالعقل—أمانة. قد يكتب حقاً يحيي أمة، وقد يكتب باطلاً يضلل أجيالاً. وقد يكون شاهد عدل، وقد يتحول إلى أداة تزيف. وقيمه ليست في الحبر الذي يسيل منه، بل في الحقيقة التي يحملها.

كم من سيفٍ قتل إنساناً، وكم من قلمٍ قتل معنىً في ملايين الناس. وكم من قلمٍ ضعيفٍ في يد رجل صادق كان أقوى من عروشٍ مدججة بالسلاح!

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

هذه الآية تضع على جبين المعرفة ختم التواضع.

كل ما يعلمه الإنسان مسبوقٌ بجهل:

﴿وَاللّٰهُ اَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ اُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئًا﴾.

لم يولد العالم وفي يده علمه، ولم يولد الفيلسوف ومعه أسئلته، ولم يولد الكاتب وفي لسانه بيانه. كل معرفة وصل إليها الإنسان إنما قامت على أدوات وهبها الله له: عقل يفهم، وحواس تدرك، ولسان يعبر، وكون قابل للقراءة.

فإذا تكبر العالم بعلمه، فقد نسي اللحظة التي كان فيها لا يعلم شيئاً. وإذا ظن أن علمه يغنيه عن الله، فقد استعمل عطية الله ليحجب نفسه عن المنعم.

وما أبدع التعبير: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. إنه يفتح أمام الإنسان أفقاً بلا نهاية. فمهما اتسع علمه، يبقى محاطاً بمحيط هائل مما لا يعلم. كل إجابة يكتشفها تفتح وراءها أبواباً جديدة من الأسئلة، وكلما صعد جبلاً من المعرفة رأى جبلاً لم يبلغها.

سُورَةُ الْعَلَقِ

العلم الحقيقي لا ينفخ صاحبه؛ بل يكشف له اتساع جهله. أما نصف العلم فيمنح الإنسان غرورًا، والعلم الراسخ يمنحه خشوعًا.

وهكذا تصنع الآيات الخمس الأولى توازنًا بديعًا:

أنت مخلوق من عَلَقٍ، فلا تتكبر.
وأنت مكرَّم بالعلم، فلا تحتقر نفسك.
وربك هو الذي علّمك، فلا تنسب الفضل إليك.
وأمامك ما لم تعلم، فلا تتوقف عن القراءة.

من نعمة العلم إلى فتنة الاستغناء

بعد هذا المطلع المشرق، تنعطف السورة فجأةً إلى الجانب المظلم في الإنسان:

﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿١﴾ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ۚ ﴿٢﴾

هنا تبدأ المأساة: لقد تعلّم الإنسان، وامتلك، وقوي، لكنه نسي الاسم الذي بدأ به كل شيء: ﴿رَبِّكَ﴾.

ليست المشكلة في أن يستغني عن الناس في بعض شؤونه، بل في أن يرى نفسه مستغنيًا. فالآية لا تقول

سُورَةُ الْعَلَقِ

إِنَّهُ اسْتَغْنَى حَقًّا، وَإِنَّمَا تَقُولُ: ﴿رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾؛ إِنَّهَا رُؤْيٌ كَاذِبَةٌ لِلنَّفْسِ، وَوَهُمٌّ يَتَكَوَّنُ حِينَ تَحِيطُ النِّعَمَ بِالْإِنْسَانِ حَتَّى تَحْجُبَ عَنْهُ حَاجَتُهُ إِلَى الْمُنْعَمِ.

وهنا تكشف سورة العلق سرَّ الطغيان كله: ليس الطغيان وفرةً مالٍ أو قوةً في ذاتها، بل فسادُ الرؤية الذي يصاحبها. أن يرى الإنسان ما في يده، ولا يرى اليد التي منحته. أن يشعر بقوته الحاضرة، وينسى ضعفه الأول. أن ينظر إلى نفسه في مرآة ممتلكاته حتى يظن أنه أكبر من حقيقته.

لَقَدْ كَانَ عَلَقًا مَتَعَلِّقًا، ثُمَّ صَارَ يَظُنُّ نَفْسَهُ مُسْتَغْنِيًّا!

وبين التعلُّق والاستغناء الكاذب تضيع ذاكرة الإنسان. ولو بقي متذكرًا لأصله، لما طغى؛ ولو ظل مستشعرًا حاجته إلى الله، لزاده التمكين تواضعًا لا استكبارًا.

لكن السورة لن تترك هذا الوهم طويلًا، بل ستضع أمامه الحقيقة التي تنكسر عندها أوهام القوة جميعًا:

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.

سُورَةُ الْعَلَقِ

فمهما ابتعد الإنسان عن بدايته، سيعود إلى ربّه في نهايته. ومهما ظن أنه استغنى، فإن الطريق كله ينتهي عند باب من لم يستغن عنه لحظة واحدة.

الفصل الثاني

الرُّجْعَى: الحقيقة التي تُسقط وهم الاستغناء

﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.

آية قصيرة، لكنها تهدم إمبراطورية الوهم التي بناها الإنسان حول نفسه.

فالتاغية لا يطغى لأنه يجهل الموت بالضرورة، بل لأنه يعيش كأن الموت لا يعنيه. يعرف النهاية بعقله، لكنه يعزلها عن قراراته؛ فتتحول الآخرة عنده إلى معلومة باردة لا تتدخل في توزيع القوة، ولا في حركة المال، ولا في معاملة الضعفاء.

ولهذا لم تقل الآية: إنك ستموت، فالموت مرحلة من الطريق، وإنما قالت: ﴿إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾. إن القضية ليست فناء الجسد، بل الوقوف بين يدي الله. ليست نهاية القدرة فحسب، بل بداية الحساب عليها.

سُورَةُ الْعَلَقِ

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُرْجِعُ إِلَى فِرَاحٍ، وَلَا يَذُوبُ فِي صَمْتِ
الْكُونِ؛ إِنَّهُ يُرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ عَلَقٍ،
وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَرَأَى كَيْفَ اسْتَعْمَلَ مَا وَهَبَهُ إِيَّاهُ.

وهنا يلتقي أول السورة بوسطها:

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ في البداية، و﴿إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى﴾ في
المصير.

فالحياة المؤمنة تتحرك بين ربوبية المنشأ وربوبية
المرجع: بدأت بالله، وتسير بهديه، وتنتهي إليه. ومن
عاش بين هاتين الحقيقتين لا يستطيع أن يرى نفسه
مستغنياً؛ لأنه يعلم أن كل لحظة من وجوده محمولةٌ
على عطاء الله، وأن كل خطوة في حياته سائرةٌ إلى
لقائه.

إن ذكر الرجوع إلى الله بعد الطغيان ليس مجرد
تهديد، بل إعادةٌ للميزان. فالطغاة يبدون في لحظاتهم
العالية كأنهم تجاوزوا القانون، وكأن قوتهم قد
منحتهم حصانةً من العدل. لكن الآية تزيج ستار
الزمن عن المشهد الأخير: الجميع عائدون، وكل

سُورَةُ الْعَلَقِ

قوة مؤقتة ستقف عاريةً من أدواتها أمام القوة التي
لا تزول.

ما أشدَّ فقر المستغني حين يرجع إلى ربه بلا شيء!
وما أعظم غنى العبد حين يرجع إليه بقلبٍ عرفه
ولم ينسه!

الفصل الثالث

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى؟

بعد أن كشفت السورة أصل الطغيان في النفس،
قدّمت صورته العملية:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾.

ليس الطغيان فكرةً تبقى حبيسة الصدر؛ إنه يتحول
إلى عدوان على عبودية الآخرين. فالمستغني لا
يكتفي بأن يبتعد هو عن الله، بل يضيق بمن يقترب
منه. وجود الساجد أمامه يجرح كبريائه؛ لأن
السجود إعلانٌ صامت بأن العظمة لله وحده.

وقد نزلت الآيات في أبي جهل حين توعدّ رسول
الله ﷺ إن رآه يصلي عند الكعبة. لكن صورة أبي
جهل تتجاوز شخصه وزمانه؛ فهي تتكرر كلما أراد
متسلطٌ أن يقف بين العبد وربّه، أو ضاق طاغيةٌ
بصلاةٍ لا تخضع لسلطانها، أو حاولت قوةٌ أرضية
أن تستولي حتى على ضمير الإنسان.

تأمل التعبير:

﴿يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾.

لم يقل: ينهى محمدًا، مع أن المقصود أولاً رسول الله ﷺ؛ بل وصفه بأشرف مقاماته: **﴿عَبْدًا﴾**. كأن الذي يراه أبو جهل رجلاً يمكن تهديده، تراه السماء عبداً مصطفىً متصلاً بربه.

وفي قوله: **﴿عَبْدًا﴾** تكريمٌ للعبودية نفسها. فالإنسان في عرف الدنيا يطلب التحرر من كل وصفٍ يوحى بالتبعية، لكن القرآن يكشف أن العبودية لله هي ذروة التحرر؛ لأن من استقر عبده الله في قلبه لم يعد عبداً للمال، ولا للسلطة، ولا للجمهور، ولا لخوفه، ولا لشهوته.

كان أبو جهل يظن أن الساجد في موضع ضعف؛ رأسه على التراب، وظهره مكشوف، ويداه على الأرض. لكنه لم يفهم أن أقوى لحظات الإنسان هي اللحظة التي يضع فيها جبهته لله؛ إذ يتحرر عندئذٍ من كل ما سواه.

سُورَةُ الْعَلَقِ

وما أعجب المشهد: رجلٌ واقفٌ متكبرٌ يظن أنه يملك القوة، ورجلٌ ساجدٌ يبدو ساكنًا؛ لكن الساجد متصلٌ برب السماء، والمتكبر منفصلٌ عن أصل قوته. أحدهما وضع جبهته على الأرض فارتفع، والآخر رفع رأسه كبرًا فسقط.

ليست المسافة إلى الله مسافة أقدام، بل مسافة خضوع؛ ولهذا يمكن أن يبلغ الساجد بقلبه ما لا يبلغه المتكبر بسلطانه.

حين تضيق السلطة بالصلاة

لماذا ينهى الطاغية عبدًا إذا صلى؟

لأن الصلاة تعيد ترتيب الولاءات في داخل الإنسان. إنها تُخرجه من دوائر السيطرة البشرية خمس مرات في اليوم، وتضعه بين يدي الله. تقول له: مهما علا سيدك في الأرض، فإن فوقه ربًّا في السماء. ومهما اشتدت حاجتك إلى الناس، فإن حاجتك الكبرى إلى الله. ومهما حاصرتك الأوامر، فثمة نداء أعلى منها جميعًا: حيّ على الصلاة.

سُورَةُ الْعَلَقِ

الطغيان يريد إنساناً يُطيع بلا ميزان، ويخاف بلا حدود، ويستمد قيمته من قربهِ إلى السلطة. أما الصلاة فتصنع إنساناً له قِبْلَةٌ لا يحددها الحاكم، وتوقيتٌ لا يضبطه السوق، وكلماتٌ لا يصوغها الإعلام، وسجودٌ لا يكون إلا لله.

لهذا خاف فرعون من إيمان السحرة أكثر مما خاف من حبالهم وعصيَّهم؛ لأن الإنسان إذا عرف ربّه خرجت روحه من سلطة الطاغية، ولو بقي جسده في سجنه.

والصلاة ليست انسحاباً من الحياة كما قد يتوهم بعض الناس، بل هي تحريراً لمركز القرار في الإنسان. يعود المصلي منها إلى الدنيا، لكن الدنيا لم تعد ربّه. يدخل السوق ولا يعبد الربح، ويقترب من السلطة ولا يبيع ضميره، ويخالط الناس ولا يجعل رضاهم قبل رضا الله.

ومن هنا نفهم قبح الجريمة في الآية: لم يَنه العبد عن أذى أو فساد، وإنما نهاه في أنقى لحظاته: ﴿إِذَا صَلَّى﴾. لم يحارب فيه خطأً، بل حارب فيه صلته بربه.

إن بعض الشر لا يكتفي بأن يعصي الله؛ بل يستفزه أن يرى الطاعة قائمةً أمامه، لأن استقامة الآخرين تفضح اعوجاجه، وسجودهم يكشف استكباره.

أَسْئَلَةُ تَهْزِءٍ ضَمِيرِ الطَّاعِيَةِ

ثم تواجه السورة هذا الناهي بسلسلة من الأسئلة:

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى  أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾.

تأمل عدل القرآن: لا يبدأ بإدانة مجردة، بل يعرض القضية على ميزان البصيرة. أخبرني: ماذا لو كان هذا الذي تنهاه قائماً على الهدى؟ ماذا لو لم يكن مجرماً ولا معتدياً، وإنما كان مصلحاً يدعو إلى التقوى؟

إن الطغيان يقلب المعايير؛ فيصبح المهتدي عنده خطراً، والمصلح متهمًا، والصلاة جريمة، والتقوى تهديدًا. لا لأن الحق قد فقد حجته، بل لأن الباطل حين يعجز عن مقارعة الحجة يحاول إسكات صاحبها.

وقوله: ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ يصور الهدى كأرض ثابتة يقف عليها المؤمن. فهو ليس خاطراً عابراً، ولا عاطفةً مرتبكة؛ إنه قاعدة تحمل صاحبها، وطريق واضح تستقر عليه قدماه.

أما قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ فينقل أثر العبودية من النفس إلى المجتمع. فالصلاة الصادقة لا تحبس الخير في صاحبها؛ من عرف الله أراد للناس أن يعرفوه، ومن ذاق سلام الهداية لم يرض أن يترك الآخرين لأنياب الضلال.

وهكذا يجتمع في الرسول ﷺ كمالان: هو علي الهدى في نفسه، وأمرٌ بالتقوى لغيره. استقامةٌ داخلية، ورسالةٌ خارجية. نورٌ يسكن قلبه، ثم يمتد إلى من حوله.

والقرآن لا يسأل الطاغية لأنه ينتظر منه جواباً؛ بل ليُسمعه الجواب الذي هرب منه. فالسؤال أحياناً أشد على الضمير من الاتهام؛ لأنه يجبر الإنسان على الوقوف أمام حقيقة فعله:

سُورَةُ الْعَلَقِ

أَيُّ جَرَمٍ فِي صَلَاةِ هَذَا الْعَبْدِ؟
وَأَيُّ خَطَرٍ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى التَّقْوَى؟
وَبَأَيِّ مِيزَانٍ صَارَ الْهَدْيُ مُسْتَحَقًّا لِلْمَنْعِ؟

الوجه الآخر من المشهد

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

الضمير هنا عائذٌ إلى ذلك الناهي المتكبر: أَرَأَيْتَ
إِنْ جُمِعَ إِلَى مَنْعِ الصَّلَاةِ جَرِيْمَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ؛ كَذَّبَ
بِالْحَقِّ فِي عَقْلِهِ وَلِسَانِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ بِإِرَادَتِهِ
وَسُلُوكِهِ؟

التكذيب فساد المعرفة، والتولي فساد الإرادة.

قد يعرف الإنسان شيئاً ثم يعجز عن العمل به، لكن
الطاغية هنا أفسد الجهتين معاً: رفض الحقيقة حين
جاءت إليه، ثم أدار ظهره لها. لم يكن ضحية
غموضٍ في الدليل؛ بل أسيرَ كبرياءٍ يمنعه من
الانقياد.

والمفارقة التي ترسمها السورة مؤلمة:

سُورَةُ الْعَلَقِ

العبد يُقبل على الله، والطاغية يتولى.
العبد يصلي، والطاغية ينهى.
العبد يأمر بالتقوى، والطاغية يكذب بالحق.
العبد يضع جبهته على الأرض، والطاغية يرفع رأسه على الخلق.

إنهما طريقان متقابلان تمامًا، وليست المعركة بين رجلين متنافسين على مكانة دنيوية؛ إنها معركة بين رؤيتين للوجود: إنسان يعرف أنه عبدٌ راجع إلى ربه، وإنسان يرى نفسه مستغنياً فيحاول أن يمنع الآخرين من الرجوع إليه.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾

ثم تأتي الآية التي تُسقط الأفتنة كلها:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.

لم تقل: ألم يعلم أن الله قادرٌ عليه، مع أن ذلك حق.
ولم تقل: ألم يعلم أن الله سيعاقبه، مع أن العقاب آتٍ
إن لم يتب. بل واجهته بالحقبة الأسبق من العقاب:
الله يراه.

سُورَةُ الْعَلَقِ

إن الطاغية يتقوى عادةً بمشهد ناقص؛ يرى المصلي الضعيف أمامه، ويرى أتباعه وعشيرته حوله، لكنه لا يرى نظر الله المحيط به. يظن أن المعركة بين قدرته وقدرة العبد، ولو استحضر أن الله يرى لتغير المشهد كله.

﴿يَأْنِ لِلَّهِ يَرَى﴾: يرى تهديده، ويرى خوف المؤمن، ويرى القدم التي تمشي إلى المنع، والقلب الذي امتلأ كبراً، واللسان الذي نطق بالأذى. يرى ما ظهر من الفعل، وما اختفى وراءه من الدوافع.

هذه الرؤية الإلهية هي سكينه المظلوم ورهبة الظالم في آنٍ واحد. حين لا يجد المظلوم شاهداً يقول له القرآن: الله يرى. وحين يغلق الظالم الأبواب، ويمحو الأدلة، ويشترى الصمت، تقول له الآية نفسها: الله يرى.

وهي كذلك سياجٌ خفيٌّ للأخلاق. فالقانون البشري يراقب ما يستطيع الوصول إليه، أما الإيمان فيصنع في القلب مراقبةً لا تحتاج إلى شرطي. قد ينجو الإنسان من أعين الناس، لكنه لا يخرج لحظةً من علم الله ورؤيته.

سُورَةُ الْعَلَقِ

والمؤمن لا يستحضر هذه الحقيقة خوفًا فقط؛ بل أنسًا كذلك. الله يرى سجوده حين يغفل عنه الناس، ويرى دمه حين لا يراه أحد، ويرى محاولاته الصغيرة التي لم يصفق لها جمهور، ويرى قلبه وهو يقاوم وحده.

فإن كانت ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ وعيدًا لأبي جهل، فهي في الوقت نفسه تثبيتٌ لمحمد ﷺ: امض في صلاتك؛ فلست وحدك. قد يراك عدوك بعين البطش، لكن ربك يراك بعلم وحفظٍ ونصرة.

وهنا تبلغ المواجهة ذروتها: عينُ الطاغية تراقب الساجد لتمنعه، ورؤيةُ الله تحيط بالطاغية والساجد جميعًا. غير أن الأول لا يملك إلا تهديد اللحظة، أما الله فيملك اللحظة والمصير.

وحين يوقن القلب بأن الله يرى، يصغر في عينه كل من سواه.

الفصل الرابع

الناصية الكاذبة: حين يؤخذ الطغيان من موضع

كبريائه

بعد أن أقامت السورة الحجة، وكشفت أصل الطغيان، وواجهت الناهي بحقيقة أن الله يراه، انتقلت من السؤال إلى الوعيد:

﴿كَأَلَا لَيْنٌ لَّمْ يَنْتَه لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

تأتي ﴿كَأَلَا﴾ حاسمةً، كأنها صفةٌ توقظ المتوهم من غروره: ليس الأمر كما ترى، ولست مستغنياً كما تظن، وليست قوتك التي تتباهى بها قادرةً على حمايتك.

لقد بلغ الطغيان حدًّا لا تكفي معه الموعظة الرقيقة؛ لأن بعض القلوب لا يوقظها الهمس بعد أن أصمَّها الغرور. فتأتي الآية بوعيدٍ عنيفٍ يناسب عنف الجريمة:

﴿النَّسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ﴾

السفع هو الأخذ الشديد والجذب بقوة، والناصية مقدّم الرأس؛ الموضع الذي يرفعه المتكبر شامحاً، ويتقدم به في زهوه بين الناس. فإذا بالعقوبة تأتيه من موضع كبريائه نفسه. ذلك الرأس الذي لم ينحن لله سيؤخذ أخذاً مهيناً، وتلك الناصية التي علت على الخلق ستُجرّ قهراً أمام الخالق.

إن الجزاء هنا يرسم هيئة الجريمة: رفع رأسه استكباراً، فكان الوعيد أن يؤخذ من مقدمة رأسه. وكأن المعنى: من أبى أن يضع ناصيته لله مختاراً، أوشك أن تؤخذ ناصيته إليه مقهوراً.

ليس للإنسان إلا موقفان أمام ربه: سجودٌ بإرادته في الدنيا، أو وقوفٌ بذلّ الاضطرار يوم القيامة. والعاقل من اختار ذلّ العبودية الذي هو عين العز، قبل أن يدركه ذلّ العقوبة الذي لا عز بعده.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

تنسب الآية الكذب والخطيئة إلى الناصية، مع أن الذي يكذب ويخطئ هو صاحبها. وفي هذا التصوير تكثيفٌ بديع للمعنى؛ فقد تشبّع هذا الإنسان بالكذب والخطيئة حتى كأن الجرم قد استقر في مقدمة رأسه، وصار عنواناً ظاهراً له.

﴿كَاذِبَةٍ﴾ في صورها وقولها ودعواها. كذبت حين أوهمت صاحبها أنه مستغن، وكذبت حين زينّت له أن قوته ذاتية، وكذبت حين جعلته يرى الهدى خطراً والصلاة جريمة.

و﴿خَاطِئَةٍ﴾ في حركتها وسلوكها. فلم يبق الكذب فكرةً داخلية، بل تحوّل إلى اعتداء: نهى عبداً إذا صلى، وكذّب، وتولى، واستعمل ما أُعطي من قوة في قطع الطريق بين الإنسان وربّه.

وهنا نرى كيف يبدأ الانحراف من رؤيةٍ كاذبة وينتهي بفعلٍ خاطئ:

﴿أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى﴾ ثم ﴿يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾.

سُورَةُ الْعَلَقِ

حين يفسد تصور الإنسان عن نفسه، يفسد سلوكه مع غيره. والذي يرى نفسه فوق مقام العبودية سيحاول غالبًا أن يجعل الآخرين عبيدًا له. أما من عرف أنه عبد لله، فإنه لا يدّعي الربوبية على عباده.

الطغيان خطأ في معرفة الذات قبل أن يكون خطأ في إدارة السلطة. الطاغية لا يعرف حجمه الحقيقي، ولذلك يتجاوز حدوده. يظن أن ما وُضع في يده صار ملكًا مطلقًا له، وأن التأخير في أخذه إهمالًا لا إهمال، وأن صمت السماء رضا، وأن ضعف المظلوم نهاية القصة.

لكن آيةً واحدة تقلب المشهد:

﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾

القوة التي يتكئ عليها ليست سوى مهلة، والناصية التي يرفعها ليست بعيدة عن قبضة الله.

الفصل الخامس

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ: سقوطُ وهم الجماعة

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

النادي هو مجلس القوم الذي يجتمع فيه الأشراف والأنصار والعشيرة. وكان الرجل في بيئة العرب يقوى بناديه، ويستند إلى قبيلته، وقيس مكانته بعدد من ينهضون معه إذا دعا.

وكان أبا جهل يقول: لست فردًا؛ ورأني قومي، وحولي رجالي، ولي مجلسٌ إذا استصرخته أجاب.

فيأتيه التحدي القرآني:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾.

ليجمع كل قوته، وليستدع كل من يظن أنهم يمنعونه، وليحوّل غروره إلى معركة معلنة. إنه تحدٍّ لا يصدر إلا عن قوةٍ لا تقابلها قوة.

وفي الجهة الأخرى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

سُورَةُ الْعَلَقِ

وهم ملائكة العذاب، شدادٌ غلاظ، لا يعصون الله ما أمرهم. وفجأةً ينكمش نادي المتكبر بكل رجاله أمام جنودٍ لا طاقة للبشر بهم.

المقابلة مهيبة: هو يدعو نادياً من أهل الأرض، والله يدعو الزبانية. هو يستنصر بأسماء زائلة، والله يأمر جنوداً لا يعجزهم أمره. هو يظن كثرة من حوله ضماناً، والقرآن يكشف له أن كثرة البشر لا تصنع ملجأً من الله.

كم من طاغية خدعته الجموع التي هتفت له! ظن أن الأصوات التي تملأ الساحات تستطيع أن تدفع عنه حكم الله، وأن الحراس حول قصره دليل أمنه، وأن الذين يصفقون له اليوم سيقفون معه غداً. لكنه لم يفهم أن النادي نفسه سيتفرق، وأن المصفقين سيتبرؤون، وأن الإنسان سيأتي ربه فرداً كما بدأ فرداً.

﴿قَلِيدٌ نَادِيَةٌ﴾ ليست تحدياً لأبي جهل وحده، بل كشفٌ لكل إنسان احتّمى بالجماعة من الحقيقة. فقد يصنع الجمع وهماً أخلاقياً؛ يظن المرء أن الخطأ

يصير صوابًا لأن كثيرين يمارسونه، وأن الباطل يكتسب شرعيته من كثرة المصنفين له.

لكن الحقيقة لا تُقاس بعدد الواقفين معها. كان محمد ﷺ يومئذٍ يصلي عند الكعبة وحده في مواجهة نادي قريش، ومع ذلك كان هو الأمة القادمة، وكان ناديهم هو العالم المنقضي. كان في الظاهر فردًا، لكن المستقبل كله كان يقف في صلاته.

وهكذا يربينا القرآن على ألا نزن المواقف بعدد أصحابها، بل بمقدار ما فيها من حق. فقد تقف وحدك، ويكون معك من قوة الحقيقة ما يهزم جموعًا. وقد يحيط بك النادي كله، ولا يكون بينك وبين السقوط إلا أن تنتهي المهلة.

الفصل السادس

﴿كَأَلَا لَا تُطِعْهُ﴾: تحرير الإرادة

بعد الوعيد الموجه إلى الطاغية، تلتفت السورة إلى النبي ﷺ، وإلى كل مؤمن يواجه سلطةً تريد أن تقطعه عن الله:

﴿كَأَلَا لَا تُطِعْهُ﴾.

إنها كلمة التحرير.

الطغيان لا يكتمل بمجرد وجود طاغية؛ بل يحتاج إلى طاعةٍ تمنحه القدرة على التمدد. يريد منك أن تخاف قبل أن يضربك، وأن تتراجع قبل أن يمنعك، وأن تهزم نفسك نيابةً عنه. فإذا امتنعت عن طاعته في الباطل، سقط نصف سلطانه في اللحظة نفسها.

﴿لَا تُطِعْهُ﴾ لا تعني التمرد على كل نظام أو رفض كل طاعة مشروعة، وإنما تعني أن طاعة المخلوق تقف عند حدود طاعة الخالق. فلا يملك أحد أن يقتحم المنطقة التي خصّها الله لنفسه في ضمير المؤمن.

قد يملك الطاغية أن يحاصر الجسد، لكنه لا يملك القلب إلا إذا سلّمه صاحبه إليه. وقد يمنع الصوت، لكنه لا يستطيع أن يطفئ اليقين. وقد يضيق على الصلاة في مكان، لكنه لا يقدر أن ينتزع معنى السجود من الروح.

وأول انتصار للمؤمن ليس أن يزول الطاغية، بل أن يزول خوفه المتأله من قلبه. فإذا صار الله أكبر في نفسه من التهديد، بدأ التحرر الحقيقي.

هذه الآية جاءت للنبي ﷺ وهو في أول الطريق، لا يملك جيشاً ولا دولة، وأبو جهل تحيط به سطوة قريش. ومع ذلك لم يأمره الوحي أن ينتظر حتى تتوازن القوى، بل قال له في لحظة اختلال الموازين الظاهرة:

﴿لَا تُطِعْهُ﴾.

فالحق يستمد ثباته من مصدره، لا من عدد أنصاره. والعبادة ليست منحةً يقدمها الأقوياء للمؤمن، حتى ينتظر إذنهم لأدائها؛ إنها حقّ العبودية الذي لا يملك أحدٌ نزعَه.

﴿وَاسْجُدْ﴾: الجواب العملي على الطغيان

لم تقل الآية: لا تطعه ثم امض، بل قالت:

﴿وَاسْجُدْ﴾.

فالامتناع عن طاعة الباطل وحده لا يكفي؛ لا بد أن يقترن بطاعة الحق. القلب لا يعيش في فراغ: إن تحرر من سلطان الطاغية ولم يدخل في عبودية الله، بحث عن صنمٍ آخر.

والجواب القرآني على من ينهى عن الصلاة هو المزيد من السجود. كأن المعنى: أراد أن يقطعك عن ربك، فحوّل تهديده إلى سببٍ لمزيد من القرب. لا تسمح له أن يحدد شكل علاقتك بالله، حتى من

طريق رد الفعل؛ بل اثبت على وجهتك، واجعل
جبهتك أبلغ ردٍّ على كبريائه.

إن السجود هنا ليس حركةً جسديةً فحسب، بل
موقفٌ وجودي كامل. أنت تقول فيه دون كلمات: يا
رب، أنت الأعلى وأنا عبدك. لا أرى قوةً فوق
قوتك، ولا أمرًا فوق أمرك، ولا غنى لي عنك.

وهنا تكتمل المقابلة التي بنتها السورة:

الطاغية يرفع رأسه، والمؤمن يسجد.
الطاغية يستدعي ناديه، والمؤمن يستدعي قرب
ربه.

الطاغية يرى نفسه استغنى، والمؤمن يعلن افتقاره.
الطاغية يؤخذ بناصيته، والمؤمن يضع ناصيته
طوعًا بين يدي الله.

وهذا أحد أسرار السجود: إنه يردّ الإنسان إلى
حقيقته قبل أن تخدعه أوهام القوة. كلما علت مكانته
بين الناس، أعاد جبهته إلى التراب؛ فيتذكر المادة
التي خُلق منها، والرب الذي رفعه، والمصير الذي
يرجع إليه.

سُورَةُ الْعَلَقِ

لهذا كان السجود وقايةً من الطغيان. فمن وضع
أشرف موضع في جسده على الأرض لله، صُعْب
عليه أن يتعالى على عباده. وإذا خرج من صلاته
متكبراً، فقد أدّى هيئة السجود ولم ينفذ معناه إلى
قلبه.

﴿وَاقْتَرِبْ﴾: غاية الرحلة

تُخْتَمُ السورة بكلمة لا أدفاً منها:

﴿وَاقْتَرِبْ﴾.

بدأت السورة بأمرٍ يفتح العقل: ﴿اقْرَأْ﴾، وانتهت بأمرٍ
يفتح القلب: ﴿وَاقْتَرِبْ﴾.

وبين القراءة والاقتراب تقوم رحلة الإيمان كلها.
تقرأ لتعرف، وتعرف لتعبد، وتسجد لتقترب. فالعلم
الذي لا يقود إلى القرب قد يتحول إلى أداة استغناء،
والعبادة التي لا تقوم على معرفة قد تصبح عادةً بلا
روح.

ما أبدع هذا البناء: أول كلمة نزلت من القرآن
﴿اقْرَأْ﴾، وخاتمة المقطع الأول من الوحي ﴿وَاقْتَرِبْ﴾.

كأن رسالة القرآن منذ لحظتها الأولى تقول للإنسان: المعرفة طريق، وليست غاية نهائية؛ وغاية الطريق أن تعرف ربك حتى تسير إليه.

ولم يقل: واسجد تصل، بل قال: ﴿وَاقْتَرِبْ﴾؛ لأن السير إلى الله مقامات متجددة. كلما عرفت منه ازددت شوقاً إليه، وكلما عبدته اكتشفت تقصيرك في حقه، وكلما اقترب قلبك انفتحت أمامه آفاقٌ جديدة من المحبة والخشية والأنس.

والاقتراب هنا قرب عبودية ورحمة ورضوان، على ما يليق بجلال الله سبحانه، من غير تشبيه ولا تكليف؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. إنه اقتراب القلب بالطاعة، واقتراب العبد من منازل الرضا، لا مسافةً حسية تُقاس بمقاييس المخلوقين.

والعجيب أن السجود—وهو أشد هيئة الإنسان انخفاضاً—صار طريقه إلى أعلى مقامات القرب. كلما انخفضت الجبهة لله، ارتفعت الروح. وكلما تضاءلت النفس بين يديه، اتسع نورها. وكلما اعترف العبد بفقره، أغناه الله بقربه.

سُورَةُ الْعَلَقِ

الطاغية طلب العلو فهبط.
والساجد اختار الخضوع فاقترب.

من العلق إلى القرب

سورة العلق ليست حديثًا عن بداية الوحي وحدها، بل هي خريطة الإنسان كاملةً.

بدأ الإنسان ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾؛ ضعيفًا، متعلقًا، لا يعلم شيئًا. ثم أكرمه الله بالعلم والقلم، وفتح له أبواب القراءة. وهناك وقف أمام امتحانه الأكبر: هل تقوده المعرفة إلى معرفة ربّه، أم تدفعه القدرة إلى وهم الاستغناء؟

فإن نسي بدايته، طغى.

وإن رأى نفسه مستغنيًا، كذب وتولى.

وإن استحكم طغيانه، لم يكتف بضلاله، بل نهى غيره عن الصلاة.

وإن تذكر أن الله يراه، وأن إلى ربه الرجعى، عاد إلى مقام العبودية فسجد واقترب.

إن الخيط الجامع للسورة هو حقيقة الافتقار إلى الله. كان الإنسان في الرحم علقًا متعلقًا بأسباب خلقها الله، وهو بعد خروجه أشد تعلقًا بربه وإن غفل. لا

سُورَةُ الْعَلَقِ

يقوم جسده إلا بإمداده، ولا يفتح عقله إلا بتعليمه،
ولا تستقيم روحه إلا بهداه، ولا يجد أمنه إلا في
قربه.

غير أن الإنسان قد يجهل فقره حين تكثر النعم في
يده. وهنا تقع الخديعة الكبرى: تتحول النعمة التي
كان ينبغي أن تدله على الله إلى حجاب عنه،
ويستعمل العلم الذي علّمه الله إياه ليجادل في ربه،
ويستعمل القوة التي وهبها له ليمنع عباده من
عبادته.

ولهذا وضعت السورة أمام وهم الاستغناء ثلاث
حقائق كبرى:

أنت مخلوق: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.
وأنت عائد: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.
وأنت منظور إليك: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾.

من عاش بهذه الحقائق تواضع علمه، واستقامت
قوته، وطهرت عبادته. ومن نسيها صنع من نفسه
إلهًا صغيرًا، ثم أمضى حياته يطارد الساجدين؛ لأن
سجودهم يذكره بالحقبة التي يريد نسيانها.

سُورَةُ الْعَلَقِ

سورة العلق تعيد تعريف القوة: ليست القوة أن تمنع عبداً من الصلاة، بل أن تسجد لله رغم من يمنحك. وليست الكرامة أن ترفع ناصيتك على الخلق، بل أن تضعها لله فلا يستطيع أحد أن يُذل روحك. وليس الغنى أن ترى نفسك مستغنياً، بل أن تعرف فقرك إلى من بيده خزائن كل شيء.

بدأت السورة بغارٍ يحيط به الصمت، ورجلٍ يرتجف من جلال اللقاء. لكن الكلمة التي نزلت في ذلك الغار ستخرج أمةً من أميتها، وتبني عقلاً جديداً، وتفتح للإنسان طريقاً من القراءة إلى السجود، ومن المعرفة إلى القرب.

وفي أول الوحي وآخر هذه السورة يتلخص منهج النجاة:

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: فلا معرفة بلا هداية.
- ﴿لَا تُطِعْهُ﴾: فلا عبودية لطاغية.
- ﴿وَاسْجُدْ﴾: فلا تحرر بلا عبودية لله.
- ﴿وَاقْتَرِبْ﴾: فلا غاية أجل من رضوانه.

سُورَةُ الْعَلَقِ

وهكذا تنتهي رحلتنا التدبرية في سورة العلق: السورة التي بدأت بتكوين الجسد في ظلمة الرحم، وانتهت بتكوين الروح في نور السجود؛ بدأت بالإنسان معلّقًا لا يملك شيئًا، وانتهت به قريبًا من ربه.

وما بين ﴿عَلَقٍ﴾ و ﴿وَاقْتَرَبْ﴾ قصة الإنسان كلها.

تم بحمد الله